فراس عبد الرزاق السوداني

ترانيم الهجرة إلى الشمال

أوّل عمل يستلهم رواية عربية في لوحات شعريّة:
"موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح

كوثا ناشرون

الطبعة الأولى

فراس عبد الرزاق السوداني
ترانيم الهجرة إلى الشمال
كوثا ناشرون


Dr. Binibrahim Archive

ترانيم الهجرة إلى الشمال

٨١١,٩٢

س ٩٤٢ السُّودانيّ، فراس عبد الرزّاق محمّد

ترانيم الهجرة إلى الشمال، مُطوّلة شعريّة في ديوان

الواصفات: الشعر العربيّ - العراق - أ - العنوان.

عدد الصفحات: **١١٠ ص** القطع: ٢١ × ٢١سم

الطبعة: **الأولى** تاريخ الطبعة: ١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

الناشر: كُوثا ناشرون - بغداد

م.و.

٢٠٢٢/٣٦٩٦ الترقيم المعياري الدوليّ (ISBN): 978-9922-21-329-3

لوحة الغلاف وتخطيطات الديوان: **للفنّان العراقيّ محمّد كاطع**

تصميم الغلاف: **عليّ السجّاد فراس**

فراس عبد الرزاق السودانيّ

(بقيّة كِندة)

ترانيم الهجرة إلى الشمال

أوّل عمل يستلهم رواية عربية، في لوحات شعريّة:

«موسم الهجرة إلى الشمال» للطيّب صالح

كوثا ناشرون





استهلال


2022

جنوب وشمال

(تفعيلة من الرَّجَز)

في الجانبِ الأقصى من الأرضِ

بأنتَرْكتِكا[1]

في القُطُبِ المُتخم بالصَّقيع والجبالْ

بليلها البَليدِ..

والمُفرطِ في سُدُولهِ

وفي نهارٍ ساكن القَرْضِ

كلُّ الدُّنى شَمالْ!

---

(١) أنتركتِكا: القارَّة القُطبيّة الجنوبيّة، تقع أقصى جنوب الأرض، وكلّ ما فوقها بالنسبة لها شَمال.

نِسبيّةٌ هذي الجِهاتُ بينَنا

ليسَت سوى خَطّ توارى باهتاً..

للطولِ والعرضِ

وكلُّنا في أرضهِ من ضَعفنا عِيالْ

مَن كان فِينا..

يذرعُ الصَّحرا على راحلةٍ،

أو طائراً..

في سُرعة الومضِ،

فأيُّ فضل لذرى الشّمالْ؟!

***

بين يدي الديوان

هذه مطوّلةٌ شِعريّة في مائة وعشرين بيتاً، كتبتُها مُستلهِماً أهمّ رِوايات الأديب الراحل الطيّب صالح «موسم الهجرة إلى الشمال» التي صُنِّفت ضمن أفضل مائة رواية عربيّة في القرن العشرين، بل اختِيرَت ضمن قائمة أفضل مائة عمل أدبيّ في التاريخ![1]

والحقّ أنّي لا أعرف تجربةً شِعريّة سابقة على هذه التجربة استلهمَت عملاً روائيّاً عربيّاً، مُتأمّلة في مَضامينه وأفكاره وشخوصه (كما صنعتُ هنا) في لوحات شعريّة تُلامس الرّمز في ذلك كلّه وتمسّه مسّاً لطيفاً بحسب جُود القريحة وإسعاف الحال ومواتاة الإسقاط، وأرجو ألا أكون مُخطئاً في زَعمي هذا!

---

(١) نظَّمَ هذه القائمة نادي الكُتّاب النرويجيّ عام ٢٠٠٢م، وسمّيت: «مكتبة بوكلبن العالميّة». شارك في وضعها مائةُ كاتب من أربع وخمسين دولة مُختلفة، وشملت البلدان والثقافات جميعاً عبر العصور. تُنظر القائمة وحولها في وكيبيديا (مكتبة بوكلبن العالميّة).

وقد قرأتُ الرّواية مرّتين، كنتُ في الأولى مُتلقّياً مُتذوّقاً ومتأمّلاً، وجعلتُ الثانية تحليليّةً ناقدة حاولت فيها استِكناه الرّمز واستخراج الكنز وتقييد المضمون، فتمَّ لي ذلك في مُدّة يسيرة، وإذا بحواشي نُسختي ملأى بالتعليقات والتقييدات، بما لو اتّخذتُهُ مادّةً لدراسة نقديّة حول الرواية؛ لكفى وأوفى على الغاية!

ثمّ شفعتُ القراءتين بنظرةٍ شاملة إلى تعليقاتي على الرواية مرّات، أستخلص خطوطها ومساراتها، وأبلو الرَّمز في شخصيّاتها، وأُلاحق زمانها ومكانها، جامعاً مع هذا كلّه أهمّ العبارات التي دَسَّها صالح في ثنايا النصّ؛ لتضمين ما تسنح بضمّه سانحةُ ائتلاف وتوافق مع نسيج العمل.

والمطوّلةُ من البحر الكامل، بعَروضٍ تامّة صحيحة وضربها مثلها، وما أجريت في الوزن إلا ما حَسُن من الزِّحافات وخفَّ على أُذُن الذوّاق المُرهف.

راوحتُ فيها بين قوافٍ مُتعدّدة، وصلتها جميعاً بهاء ساكنة؛ لأسبغ على القوافي المختلفة ثوب التناغُم والائتلاف.

سيرى القارئ أنّ القصيدة لم تُعرَض بصورة شطرين مُتقابلين، كأيّ قصيدة عموديّة، بل قُطّعَت تقطيعاً تصويريّاً، فجاءت شبيهة بنَسَق شعر التفعيلة، وما هي منها على الحقيقة.

ورأيي أنّ كتابة القصيدة عموديّاً يزيد من إحساس القارئ بإيقاعها؛ لتتابع القراءة واسترسالها، وهذا حَسَن في موضعه. لكنّني وجدت الأنسب لهذه القصيدة أن تُكتب على ما وصفتُ لك من تقطيع تصويريّ؛ لتُتاح للقارئ فُسحة تأمّل، بسببٍ من تثبيطِ إحساسه بالإيقاع وسُرعته، والمقام هنا مقام تأمّل وتلبُّث.

وأوّل أسباب استلهام هذا العمل، شدّة تأثّري به وحفاوتي بالفنّ الذي حواه على صُعُدٍ شتّى وخصوصاً تلك اللغة التي تنتمي إلى السَّهل المُمتنع، بأبعاد هذا التعبير جميعاً.

ومن ذلك، أنّ المحور الرئيس للعمل ما زال مُلتهباً، بل هو في اتّقاد وتسعُّر، ألا وهو صِراع الحضارات الذي ازداد جوعاً وتوحّشاً بعد العولمة الحديثة التي فرضها الغالب على المغلوبين والمستضعفين والمُهمّشين من سُكّان هذا الكوكب المنكوب بتظالم أهله واصطراعِهم عليه.

ومن أسبابهِ التي جدّت لي بعد كتابة العمل، أنّه يُجسِّرُ العلاقة بين الأنواع الأدبية، وأنّ هذه الأنواع ليست سوى أوجه مُتعدّدة للإبداع الأدبـيّ، تصدر عن مِشكاة واحدة.

ومنه الاحتفاء برواية الطيّب صالح الأبرز، وإبراز أوجه الإبداع المختلفة فيها، من فِكرٍ أصيل ومضمون عميق ولُغة شاعرة، وهي أوجه كَفَلت لهذا العمل أسباب الذُّيوع والبقاء.

ومن ذلك، عرضُ روح الرواية للقارئ، كما تخيّلها شاعر وتفاعل معها وانفعل بها.

ومن أطرف ما سمعتُ حول هذا العمل، قولُ صديق لي وقد قرأ طَرَفاً منه: «العجيبُ أنّ الناس تهربُ من الشِّعر إلى الرواية؛ لصَولةِ الشعر، فكيف تأخذ الرواية إلى الشعر؟!»[1].

شَفعتُ العمل بلوحات من التخطيط بالفَحم، صدّرتُ بها اللوحات الشعريّة، فكان لكلّ لوحة من الشِّعر لوحةٌ من الفحم تُحاكي النصّ وتَحكي عنه بعض تكثيفه، أبدعها التشكيليّ

(١) هو صاحبي السيّد إبراهيم عبد الكريم الجُعلوف، أستاذ لُغة وذوّاقة شِعر، من جمهورية مصر العربيّة.

العراقيّ الشاب محمّد كَاطع، فله من صاحبه الشكر والثناء؛ لإبداعه في استلهام النصّ والتعبير عنه بتخطيطات مُتناغمة معه، ولصبره على الشاعر وحساسيته المُفرطة في قبول العمل، حتّى اضطُرّ إلى إعادة العمل مرّتين، دون أن يبدر منه ما يسوء، أو ينبِسَ بما يُكدّر، وهو مئنّةٌ من تمكّنه ورُقيّه في آن.

والحقّ أنّ تحلية النصّ الأدبيّ بالتخطيطات والرسوم سُنّة عربيّة قديمة، وأبرز عمل في ذلك رسوم الواسطيّ(١) التي طرّزت «مقامات الحريريّ».

---

(١) يحيى بن محمود الواسطيّ (القرن السابع الهجريّ = الثالث عشر الميلاديّ): أحد أهم مؤسّسي مدرسة بغداد للتصوير (يعني: فنّ الرّسم). اختطَّ نُسخة من «المقامات» للإمام الحريريّ عام ١٢٣٧م وزينها بمائة مُنَمْنَمة من رسومه تُعبّر عن الخمسين مقامة، وعمله هذا أول عمل في التصوير العربـيّ نعرف اسم مُبدعه.

تُنظر: ويكيبيديا – الموسوعة الحُرة (الواسطيّ).

رأيتُ ضرورةً في إعطاء نُبذة عن الرواية بعد هذه المقدّمة، ثمّ التقديم لكلّ لوحةٍ باقتباسٍ من الرواية، تُعين القارئ على تكامل الصورتين، وتحفّز مَن لم يقرأ الرواية؛ لِاقتنائها وقراءتها والاستمتاع بها.

بل أدعو كلّ مَن تصدّى للفنّ الروائيّ من الناشئة أن يقرأ هذا العمل، ضمن قائمة من الروايات التي لا مناص من قراءتها قراءة تحليليّة ناقدة، تكشف عن محاسنها وما فيها من هَنات ربما، فذلك من أوجب الواجبات؛ لأنّ القراءة الناقدة قراءة تطبيقيّة، لا تضارعها قراءة في نفعها وعوائدها على الكاتب.

وأثنّي على دعوتي الأولى للكُتّاب بدعوةٍ أُخرى للشعراء؛ ليلتفتوا للأعمال الروائيّة الجادّة التي تستأهل التأمّل الشعريّ والاستلهام والمُحاكاة، على أن يبتعدوا عن نظم النصّ بما يُشبه الشعر التعليميّ، فإنّك حينما تستلهم تبحثُ في خبايا الزّوايا من النصّ، مُنقّباً وراء كوامنه التي لم تُبسط نثراً، لتعبّر عنها شعراً..

هذا العمل أبعد ما يكون عن الشعر التعليميّ، هو تأمّل واستلهام ومُحاكاة وربما نقد وتكميل، وأرجو أن يجد القارئ مصاديق ذلك فيما هو مُقبل عليه من شِعر.

وكلمة أخيرة، لا أجد عنها محيصاً هنا، رغم ما فيها من كَدَر..

عُرض هذا الديوان أوّل الأمر على فنّان مِصريّ فاضل، من كبار الرسّامين (وهو بهذا الوصف جَدير!)، فاعتذر الرجل عن عمل تخطيطات الديوان، متذرّعاً بأمرين:

الأوّل: «أنَّ العمل يحتاج ذوّاقة من خاصَّة الخاصّة، في زمن عَزَّ فيه الخاصّة!».

الثاني: «نشر هذا العمل، يُعَدُّ ترويجاً لرواية (موسم الهجرة إلى الشمال) بما فيها من خوض في تفاصيل علاقة البطل الجنسيّة في لندن والسّودان...».

هذا نصّ ما كتب، وأهمّ ما جاء في أسبابه، وهو دالّ على أنّه ممَّن قرأ الرواية!!!

أمّا جوابي على الأوّل، فيتّصل بجدليّة سُوِّد في سبيلها ورق كثير، هي رسالة الشعر ووظيفة الشاعر في المجتمع، وهل هو مسؤول عن الارتقاء بجمهوره، أم مُجبر على تقديم ما يُعجبهم، على مذهب «الجُمهور عاوِز كِدَهْ»؟

وأنا أجد الجواب منزلةً بين المنزلتين، وأنّ الشاعر الذي لا يُشارك في الارتقاء بجمهوره شاعر مُقلّد، يُحاكي شُعراء عصرِه دون تقديم جديد يبرّر وجوده بينهم، أي إنّه يكتب بقلم غيره ويقول بلسان سواه..

أمثال هذا الشاعر لن يترك بصمة في المشهد الأدبيّ أصلاً، إلا على سبيل استعارة بصمة هجينة الْتَمَّت من بصمات شتّى.

وأمّا جوابي على الثاني، فنعم.. أزعجتني بعض المواضع في الرواية، ممّا يدخل تحت عنوان «الأدب المكشوف»، لكنّني في كلّ مرّة كنتُ أتماسك وأعيد القراءة، مُحاولاً البحث عن سبب هذا الانطلاق في ممنوعات المجتمع الشرقيّ..

وقد كانت تلك المواضع على صنفين، صنف جاء على لسان بعض الشخوص كود الريّس وبِنت مَجذوب خصوصاً، وصنف آخر على لسان بطل الرواية مصطفى سعيد في مغامراته بلندن خصوصاً.

ثمّ وجدت الصنفين ضروريّين لالتئام السياق في الإطار الذي وضعه الكاتب للرواية.

تعرف هذا إذا اكتشفت مغزى الرواية ومراميها البعيدة:

- على مستوى وصف المجتمع وما يدور في مجالسه ومعالجة آفاته.
- وعلى مستوى التفتيش في ذات الإنسان الشرقيّ وما تعقّد فيها من عُقد وترسَّب في قعرها من رواسب.

هذا مع التأكيد على الإسقاطات السياسيّة التي حملتها الرواية (وأوسعها الكُتّاب والنقّاد شرحاً وتحليلاً ونقداً)، فإنّ قراءتها قراءة سطحيّة ستُهدرها وتهدر ما وراءها من نقدٍ لواقعنا الفكريّ والحضاريّ والسياسيّ والاجتماعيّ والذاتيّ..

لست من دُعاة الأدب المكشوف (ومعاذَ الله!) وما قارفته يوماً، وقد ارتضيتُ أن أقف في الشعر والأدب عند عتبات اصطنعتها لنفسي، وهي نسبيّة متبدّلة وغير مُلزمة لغيري..

وربما كانت تلك العتبات من أسباب تأخّري عمّا يراه غيري إبداعاً وجديداً وثوريّاً.. ربما كان ذلك كذلك، ولي عليه قرائن ممّا أنشر في فيسبُك مقارباً فيه تلك العتبات دون تعدّيها.

لكنّني لا أجد في هذه الرواية وعملي هذا ما يدخل تحت شيء ممّا قال الفنّان آنف الذكر (وسيقوله غيره قطعاً!) فلُغة الأدب والشعر لغة رمز وإسقاط، وهي في ثورتها على الواقع قد تقترب من المحظورات لغاية نبيلة، والله من وراء القصد!

مدينة السلام، بغداد - ٢٠/ ٣/ ٢٠٢١م

بقيّة كندة

***

الفهرست

العنوان	الصفحة

***

نبذة عن الرّواية وجوّها وشخصياتها

صدرت رواية الطيّب صالح في أواسط ستينات القرن المنصرم (وتحديداً عام ١٩٦٦م) في بَرزخٍ زمنيّ بين عَهدين: عهدٍ يُجرجرُ أذياله مُنكفأً إلى بلاده في الشّمال بعد احتلال طال لأصقاع الجنوب؛ ليعود بعدها خلف أقنعة مختلفة..

وعهدِ صعود التيّار القوميّ العربيّ الذي كان في طور ترميم الهُويّة العربيّة، بعد انسلاخ أقاليمه عن الدولة العُثمانية إبّان مرضها واضمحلالها والزوال.

في هذا البَرزخ، وعلى أعتاب سؤال الهُويّة، كتب الطيّب صالح روايته، مُحاولاً إثارة سُؤالات وجوديّة، ومحاولاً توصيف علاقة الجنوب بالشَّمال (أو الشرق بالغرب) الشائكة الملتبسة، مُنذ احتكّا ببعض.

وإذا جازَ لنا إطلاق وصف غالب على محور من محاور الرواية، فسيكون «صراع الحضارات» بين الجنوب العربيّ والشمال الأوربيّ، على مستوى المؤسسات والأشخاص جميعاً، وهو ما جعلها مُتجدّدة، لا تبلى مع الزمن.

وفيها محاور فرعيّة، كمَكانة المرأة في المجتمع الريفيّ، ومشاكل التعليم، والزراعة والريّ، والفساد الضّارب في عمق دولنا الناشئة على يد المُحتل، قبل رحيله شخصاً وتسوّره حدائقنا الخلفيّة بالوكالة.

وأحداثُ الرّواية تدور حولَ شاب سودانيّ نابهٍ مُجتهد (مُصطفى سعيد) يُسافر إلى الغرب لغرض الدراسة، وهو الغريب عن الغرب وثقافته وتقاليده.

بعد تخرّجه، يحصل على وظيفته ثمّة مُحاضراً في إحدى جامعات بريطانيا، متبنّياً قِيم ذلك المجتمع.

جعل الكاتبُ سعيداً هذا نُقطةَ احتكاكٍ بين الجنوب والشَّمال (الشرق والغرب)؛ عرض من خلالها صراع القيم والعادات وصراع الحضارات.

وبلمحة خاطفة يُوحي إليك الكاتب أنّ محاولات مصطفى سعيد إثبات رُجولته بعلاقات مُتعددة مع نساء بريطانيا = هي في حقيقتها ثأرٌ قديم بين صاحب الأرض ومَن احتلّها، بين المظلوم ومَن ظلمه، المستضعف ومن استضعفه وسلب إرادته.

يصوّر الكاتب في هذا السياق علاقة مصطفى سعيد بآن هَمُند، وإيزابيلا سِمُور، وشِيلا گرين وود، وجِين مورس في غُرفته الشرقيّة تلك التي جعلها مذبحاً لنساء الغرب، ببخورها الشرقيّ، ومراياها، وعاجها، وأبنُوسها.

أسهب الكاتب في عرض علاقات سعيد النسائيّة في مُحاولة لرصد نقاط الاختلاف والالتقاء بين الحضارتين، فهو ينطلق بهذا من الأحداث الصغيرة -وتبدو تافهة لأوّل وهلة- إلى تجسيد جذور الصّراع وواقعه ومآلاته.

ويكاد يتجاوز الكاتب الحدّ في وصف الالتحام الجنسيّ بين سعيد هذا وعشيقاته وزوجته؛ لأنّه يريد أن يقول لك: الجنسُ وجه من أوجه الحرب، والحربُ صراع يُشبه الجنس في عُنفه

وساديته، وفي اندماج المتحاربين الذي يكاد يستحيل قُرباً، بل حُبّاً لم يعرف الطرفان تفسيره والتعبير عنه!!!

ويركّز في السياق ذاته على النمط الذي صوّره كلُّ طرف عن الآخر، بين شَرقيٍّ مُنبهر بالغرب، بتقدّمه في مجالات العلم، وبجمال نسائه الشقراوات (على سبيل الانهزام حتّى يفقد المرء قُدرته على تمييز آيات الجمال ومجاليه)، وبين غربٍ يتخيّل العربيَّ بعيون سوداء وبشرة سمراء، يعيش في الصحراء بين الجِمال والفِيَلة، في بلاد متأخّرة علميّاً وتقنيّاً.

تعرّض الطيب صالح للمجتمع السودانيّ القرويّ بالفحص والتحليل ورصد ظواهره المميزة له، ومسّ المجتمع في المدينة بلمحات عابرة، لكنّها مركّزة، وراوح في ذلك بين الحوارت وقصّ البطل أو الراوي.

كلّ ذلك في سرد شائق، جعلهُ يتربّع على عرش السرد العربيّ ويفوق غيره من الروائيين، وإنَّ فيهم لنجيب محفوظ وغيره!

من أبرز شخصيّات الرواية:

- مُصطفى سعيد – بطل الرواية
- الرّاوي – لم يذكر اسمه
- حاج أحمد – شيخ كبير، جدّ الراوي
- مَحجوب – صاحب الراوي الوفيّ
- جِين مورس – زوجة مصطفى سعيد الناشز الشَّموس التي يقتلها أخيراً!
- شِيلا گرين وود – إحدى عشيقات سعيد (تنتحر)
- آن هَمُند – عشيقة أخرى (تنتحر أيضاً)
- إيزابيلا سِمُور – عشيقة أخرى (تنتحر هي الأخرى)
- حَسنة بنت محمود – زوجته التي ترمّلت
- وَد الريِّس – شيخ سبعينيّ مِزواج، صاحب الحاج أحمد وزوج أرملة مصطفى سعيد بالإكراه

- بنت مَجذوب – عجوز مُسترجلة تختلف إلى مجلس الحاج أحمد السّامر، كبعض الرجال
- السيِّدة روبنسون – زوجة مُستشرق تكون بمثابة أمّ لمصطفى سعيد

وقد صدّرت كلّ لوحة من لوحات المطوّلة الشعريّة باقتباس من الرواية، يناسب اللوحة ويحاكي موضوعها، توطئة لما بعدها من شعر.

هذه نُبذة عن الرواية وشخصيّاتها وأرجو أن تكون مع الاقتباسات وافية كافية في التعريف بإطار الرواية العام وبعض تفاصيلها، وصولاً لتذوّق هذا العمل.

***

« المطوّلة »

اللوحة الأولى


2022

حديث الهجرة

«لا جدوى لخداعِ النّفس، ذلك النداء البعيدُ لا يزال يتردّدُ في أُذُني... إنّني أعرف بعقلي ما يجبُ فعله، الأمر الذي جرّبته في هذه القرية، مع هؤلاء القوم السُّعداء. ولكنّ أشياءَ مُبهمة في روحي وفي دمي تدفعني إلى مناطقَ بعيدةٍ تتراءى لي، ولا يمكن تجاهلها.
واحسرتي؛ إذا نشأ ولداي، أحدهما أو كلاهما، وفيهما جرثومة هذه العَدوَى، عدوى الرَّحيل!».

موسم الهجرة، ص٧٠ و٧١

صوتٌ..
بقاع الذّاتِ بثَّ هواتفَهْ:
هذي جراحكَ بالبَليّةِ نازفَةْ
هاجِرْ؛ تجد عِوضاً وأرضاً حُرّةً..

لكنّها للغير -لا لكَ!- وارفةْ

وستلمحُ الأسرابَ..

قبلكَ حُشَّداً

تطفو على جُنح الظلام مُجانِفةْ

مِن كلِّ فجٍّ في الجنوبِ..

توافدوا

نثروا الأمانَ

على الدُّروب الخائفةْ

ستدور ثمّةَ

في الشَّمال مُعانداً..

ما بين ذاتكَ والرِّياح العاصفةْ:

«أنا مَن أكون..

وما تكون هُويَّتي؟!»

يَبْلى السؤالُ

ولا يُذيب مخاوفَهْ

ستعودُ؛

لو مِن بعد حينٍ تائباً

ترجو السلامةَ في الوهاد الناطِفةْ

هذا الجنوبُ يضمُّ دوماً وُلْدَهُ

فاخترْ للَحدِكَ..

مِن قُبورٍ سالفةْ!

***

اللوحة الثانية


2022

اتجاهات خادعة

«رأتني، فرأت شَفقاً داكناً كفجرٍ كاذب. كانت عكسي، تحنُّ إلى مَناخاتٍ استوائيّة، وشُموسٍ قاسية، وآفاق أُرجوانيّة. كنتُ في عينيها رمزاً لكلّ هذا الحنين.. وأنا جنوبٌ يحنُّ إلى الشَّمال والصَّقيع!».

موسم الهجرة، ص٣٤

النفسُ..

تحبسُها الجهاتُ المُجدبةْ

في ظُلمةٍ أوهامها مُتحزِّبةْ

«نحنُ الشَّمالُ

وأنتمُ بجَنوبنا...»

كلٌّ يَعُبُّ، على الحقيقةِ، مشربَهْ

والسُّكرُ..

يلهُو بالعقول مُعاقراً..

أصلَ السؤال

وغَولُه في الأجوبةْ

حتّى صَبغنا الخافقَين

من الدِّما،

فمَشاهدُ الأشلاء فينا مُرعبةْ

نسبيّةٌ هذي الجهاتُ، فشرقُنا..

يَنداحُ عن شرقٍ؛

ليصنعَ مَغربَهْ

لجنوبنا، نحنُ الشَّمال، فأيُّنا..

ورثَ الشّمالَ على سبيل المَنقبةْ؟!

***

اللوحة الثالثة


2022

أمّ بلا دموع

«كانَ هذا وداعنا، لا دموعَ، ولا قُبَلَ، ولا ضَوضاء! مخلوقانِ سارا شطراً من الطريقِ معاً، ثمّ سَلك كلٌّ منهما سَبيله».

موسم الهجرة، ص٢٧

من أينَ أبدأُ، والمرايا قاتمةْ

والذّكرياتُ..

حديثُ نفس صائمةْ؟!

نَذَرَت لصمتٍ وانْتَجته؛ ليدّعي..

بلسان وهمٍ

عن ليالٍ سائمةْ

وغلائلُ الذِّكرى..

تشفُّ عن المَضى

في حضن مَن ذرفَت وعُوداً ساهِمةْ

وسقَتهُ من أوشال صدر ضامر

ما لا يشدُّ منَ الوليد قوائمهْ

وأناملٌ مَسَّت..

تُعابثُ ثَديها،

كعُيونِهِ الألِفَت عُيوناً واجمةْ

ما واصلتهُ تردُّ مِن شغفٍ بهِ

لحَنينها..

ولهَيْنَماتٍ فاغمةْ

حتّى استوَى..

مِن عُودِه اللاشيء

يسبحُ في الأماني الحالماتِ الهائمةْ

لفظَتْهُ للبحر الكَفُور مُهاجراً

من دون زادٍ،

والدّروبِ الظالمةْ

فكأنّها وطنٌ يطوفُ بأهلهِ..

بين المنافي العابساتِ الغائمةْ

***

اللوحة الرابعة


2022

غربة وتيه

«فكّرتُ قليلاً في البلد الذي خلّفتُهُ ورائي، فكانَ مثل جبل ضُرِبتُ خيمتي عندَه، وفي الصباح قلعتُ الأوتاد وأسرجتُ بعيري، وواصلتُ رِحلتي!».

موسم الهجرة، ص٢٨

ما بينَ سَهلٍ والسُّفُوح المُتخمَةْ

تِيهٌ عجيبٌ..

لا يُواسي يُتّمَهْ

والغُربة الحمقاء تنهشُ جوعَنا

لخُرافةِ الوطن الكريم المُلهِمةْ

في هجرة اللاحيث..

نَسري هُيَّماً

تلهُو بنا كفُّ البحار مُغَمغِمةْ

ووراءنا لُجُجٌ..

تُذيب سواحلَ الوطن المشيّدِ

من سواعدَ مُعدِمةْ

الشَّرقُ يلفظُ جوعَنا

واليُتْمَ في أحداقِنا

والغربُ يقضِمُ أعظُمَهْ

وجنوبُنا..

يُذكي اللهيبَ بجوفِنا

وبنا الشّمالُ..

ذرى صَقيعٍ مُتخَمةْ

ما بين فَكَّي الاغترابِ توذَّرَت

في التِّيه أحلامٌ نَمَت مُترنِّمةْ

وحنينِ قلبٍ..

ما استقلَّ السّهلَ مِن أفلاكِهِ

والصّبرُ يُزهِقُ أنجُمهْ

***

اللوحة الخامسة



غرفة شرقيّة

«وفي لندن أدخلتُها بيتي، وكرَ الأكاذيب الفادحة التي بنيتها عن عمدٍ، أكذوبةً.. أكذوبة. الصَّندلُ والنَّدّ وريش النعام وتماثيل العاج والأبْنُوس والصور والرسوم لغابات النخل على شُطآن النيل...، وقوافل من الجمال تَخبُّ السير على كُثبان الرّمل على حدود اليَمَن، أشجار التّبلدى في كردفان، وفتيات عاريات من قبائل الزاندى والنوير والشلك...، والمرايا الكبيرة على الجدران، والأضواء الملوّنة في الأركان».

موسم الهجرة، ص١٤٧

السّحرُ شرقٌ..

يستفزّ الأمكنَةْ

ولطالما قتلَ المَغيبَ وأبَّنَهْ!

من عهدِ ذي القرنين..

كانَت بابلٌ[1]

ولسحرها في العالمينَ السَّلطنةْ

قتلَتْه، وَهْو الفاتحُ المغوارُ..

سارَ مُظفّراً

يلوي خِطامَ الأزمنةْ

وأنا أتيتُ ببابليْ..

أزهو بها

في غُرفةٍ بالباهياتِ مُزيَّنةْ

رَوضٌ يُعطّرهُ البَخورُ بشرقنا

وبها المرايا..

(١) أُريد به الإسكندر المقدونيّ (٣٥٦-٣٢٣ ق.م.) فقد اتّخذ من بابل عاصمة الإخمينيين مقرّاً له بعد هزيمته داريوس الثالث، وفيها مات بالحُمّى عن عُمر لم يتجاوز الثلاثين إلا بسنتين.

عابثاتٌ - مُحصَنةْ

للعاجِ والأَبنُوس فيها مُتحفٌ

أغنى الجمالَ..

من الجميل وأسمنهْ

حتّى استوَت لي مذبحاً

أُجري لهُ..

شرفَ النِّسا،

من ناشِز ومُدجَّنةْ

لكأنَّها «كرَريْ»[1] تغيبُ بنَقْعها

---

(١) كَرَري: مدينة تقع شمال أمّ دُرمان، ثاني أكبر مُدن السُّودان بعد الخرطوم، وهي ضِمن ولايتها. وكانت أمّ درمان عاصمة للدولة المهديّة. عُرفت كرري بسبب واقعة حربيّة تُنسب إليها، هي «معركة كرري» بين قوّات الدولة المهديّة والقُوات البريطانيّة الغازِية، عام ١٨٩٨م.

وأنا بها «كِتشنيرُ»[1] يخسَرُ أحسَنهْ

وهي انتصاراتٌ عقدتُ لواءَها

لوساوسٍ..

ضَبَحَت برأسي أزمنةْ

عالجتُ فيها من صُنوف نسائهم،

فجنيتُ من كلِّ الزهور و«سَوسنةْ»[2]

عادَت بأوهامي..

---

(١) كتشنير أو كتشنر: هو المشير الميدانيّ (أعلى رُتبة في الجيوش) هوراشيو هِربَرت كتشنر (ت ١٩١٦م)، كان قائداً للقوات البريطانيّة في «معركة كرري».

(٢) إشارة إلى عشيقة مُصطفى سعيد آن هَمُند التي لقّبها باسم «سوسن» في لقائهما الأول بُعيد محاضرته عن شعر أبي نواس، حيث قال لها وقد طوّقته بذراعيها: «وأخيراً وجدتك، يا سوسن!» يريد أنّها جاريته البغداديّة التي عبرت إليه العصور الغابرة.

إلى بغدادَ في..

أمجادها، حتّى استنامَت مُثخنةْ

أنا قاتلٌ،

وأنا القتيلُ بها جنيتُ، وغرفة الموتى..

رحىً في مطحنةْ!

***

اللوحة السادسة


2022

جين موريس

«لم تكُن كراهية، كان حُبّاً عجَزَ أن يُعبّرَ عن نفسه. أحببتُها بطريقة معوجَّة، وهي أيضاً!».

«أنا الغازي الذي جاءَ من الجنوب، وهذا مَيدان المعركة الجليديّ الذي لن أعود منه ناجياً.. أنا الملّاح القُرصان، وجين موريس هي ساحل الهلاك».

موسم الهجرة، ص١٥٣ وص١٦٢

ما كان كرهاً،

كان حُبّاً أركسَهْ

لم يُحسن التعبيرَ عمّا قدَّسَهْ!

عشقَتْهُ،

لا يُدرى بأيّ طريقةٍ

عشقَت جُنوناً..

واشتفَت بالغَطرسةْ

كانت كقبضِ الرِّيح..

في ليل دجَى

تنأى شِهاباً، لا يُطاوِع خُنّسَهْ

«موريسُ» كانَت ساحلَ الموتِ الذي..

قهَرَ الجَواري الـ طوَّحت بكَ مُبْلِسةْ

ما أنتِ،

يا وَهَج البُرُنْزِ يثورُ من..

شَمس لتُمّوزَ احْتوته كوَسوسةْ؟!

مَعَ أنّ رقّةَ ثغرها وجمالَها..

آياتُ حُسن فاغَمَتهُ كنَرجسةْ

والكبرياءُ..

حديثُ وجهٍ نابضٍ

يروي أباطيلَ النساء المؤنسةْ

ما كانَ حُبّاً،

كان قيداً مُجهداً..

أضناهُ حيثُ تمنَّعَت مُتحمّسةْ

وخَطَت..

تُخاتِلُ كبرياءَ الشّرق في..

معنى الرُّجولةِ

وهْو قهرٌ أبْلَسَهْ!

ودَنَت،

وما تدري..

بأنَّ رُجولةَ الشرقيِّ رمحٌ..

يَرتوي مَن دَسَّسهْ

«موريسُ» غربٌ دائمُ الأوهامِ في..

معنى اصطبار الشّرق،

مهما جَسَّسهْ!

***

اللوحة السابعة



حسنة بنت محمود

«وأحسستُ بها تَبكي في صَمت، ثمّ ارتفع بكاؤها، وتحوّل إلى شهيقٍ حادّ، ارتعش له الظلامُ القائم بيني وبينها. ضاعَ العِطرُ والصّمت، ولم يَعُد في الكون إلا نحيبُ امرأة ثكلت زوجاً لا تعرفه، رجُلاً أفرد أشرعته وضربَ في عرض البحرِ وراء سرابٍ أجنبيّ.

ووَد الريّس الشيخ، في داره يحلُم بليالي الغَنَج تحت فَرْكَة القرمصيص[1].

وأنا ماذا أفعل الآن وسط هذه الفوضى؟!».

موسم الهجرة، ص٩٥ و٩٦

أيُخاتل الخذلانُ دوماً موعدَهْ

أم يَشتفي..

(١) فِركة القرمصيص: قطعة مستطيلة من الحرير، تلبس فوق ثياب المرأة، تُستعمل غطاءً لرأس العروس السودانيّة أثناء طقوس الجَرْتِق، وعند أداء رقصة العروس. والجرتق: طقوس تُمارس في مراسم الزّواج. وانظر: ويكيبيديا (الجرتق).

مِن خاذلٍ قد أَبَّدهْ؟!

ما غافَلَ الذَّنبَ القديمَ مُهاجرٌ،

إلا ودمعٌ..

في المحاجر جدَّدهْ!

هو ذلكَ الجُرحُ العميقُ بذاتنا..

أبداً نحِنُّ إلى نضالٍ سدَّدهْ

هو أنتِ،

يا مَن أورثتني ثُكلها!

فوق اصطباراتِ العَذابِ مُمدَّدهْ

أحجمتُ عنكِ،

وقد خفرتُ وصاتَه..

ما كان لو أقدمتُ حتّى أُسعِدَهْ؟!

لعساءُ، يا وطناً تقاعس أهلهُ..

عن نصرهِ،

والجُبنُ فيهم بدَّدهْ

وطنٌ تكاثفتِ النوائبُ تنتخي؛

لبَواره، والدّهرُ عسفاً أشهَدَهْ

كادَت له:

الحُسّادُ، والفُسّادُ، والأوغادُ

والـ صَّمتَتْ عليهم مُجهَدةْ

غالوكِ، يا وطني السّليب،

وعطريَ الأبهى،

وآمالاً عَدَتْهُ مُندَّدةْ!

***

اللوحة الثامنة


2022

ود الريّس

«وأتصوّرُ حَسنة بنت محمود، أرملةَ مصطفى سعيد، في الثلاثين من العُمر، تبكي تحت ود الريّس الذي بلغ السبعين، ويتحوّل بكاؤها إلى قصصٍ من قصص ود الريّس المشهورة عن نسائهِ الكثيرات، يتندّر بها رجال البَلَد!!».

موسم الهجرة، ص٩٠

أين اصطباركَ، والليالي مُتلِفَةْ؟!

وحفيفُ هذا العُمر ريحٌ مُرجفةْ

ماذا جنيتَ؟!

وحملُ ظهرك مُجهدٌ..

أربى على السَّبعين يُردِي نَيّفهْ

هَبْ أنّكَ الوترُ الذي..

لا يرتخي،

هل في الفؤاد عُلالةٌ..

بكَ مُرهَفةْ؟!

هل فيهِ من زهر الجنائن عابقٌ

إن مرَّ في نادٍ جَديبٍ؛ أتحفَهْ؟!

ماذا جنيتَ؟!

وأنتَ من تلك البقايا..

المُلقِياتِ على الزَّمان تخلّفَهْ

النائباتِ، القاعداتِ بركبنا،

الهائجاتِ، العادياتِ، المُجحفةْ

ما أنتَ؟!

يا مَن لا يقرُّ قرارُهُ،

إلا على «أُخرى»

تخورُ مُزَفزفةْ!

كي تُعلن النصرَ الكبيرَ،

وتزدهي..

بين الرّجال و«بعضِ أُنثى»[1] مُقرفةْ

تتوهّم التأجيلَ..

في أجلٍ دنى؟!

أوَ ما سمعتَ من الملاكِ الرَّفرفةْ؟!

لن ينسأ الأعمارَ لَهوٌ عابث

هذي المشاعر قُدسنا المتأنِّفةْ!

---

(١) أعني بها: بنت مجذوب، العجوز المُسترجلة.

فارْبَع على نفسٍ نَمَت أطماعُها

حتّى طغَت..

فوقَ الطّباع مُخَرِّفةْ

ما كانتِ النِّسوانُ فينا سِلعةً

هُنَّ الشقائقُ، في الحياة، مُشنِّفةْ

ما كان شَعبٌ أن يُغالبَ حظَّهُ،

إلا وركنُ البيتِ يُرسي..

أسقُفَهْ!

***

اللوحة التاسعة


2022

عرس صحراويّ صاخب

«وأنا الآن تحتَ هذه السماء الجميلة الرَّحيمة، أُحسّ أنّنا جميعاً إخوة، الذي يسكرُ، والذي يُصلّي، والذي يسرق، والذي يُقاتل، والذي يَقتل. الينبوع نفسه... هذه أرض الشِّعر والممكن، وابنتي اسمها آمال!».

«ثمَّ تحلَّقنا حلقةً كبيرة، ودخلَ بعضُ الفِتيان وسط الحلقة، ورقصوا، كما ترقص النساء. وصفّقنا، وضربنا الأرض بأرجُلنا، وحَمْحَمنا بحُلوقنا، وأقمنا في قلب الصحراء فرحاً للاشيء!».

موسم الهجرة، ص١١٥ و١١٦

اللّيلُ صمتٌ يستزلُّ طوارقَهْ

ومن السُّرى شوقٌ يُمِدُّ سوابقَهْ

في عَتمهِ تيهٌ،

وفيه من الهُدى..

يحلو الطِّباقُ، فيستحثُّ نواطقهْ!

جئنا على قدرٍ،

فتلمَحُ ناسكاً..

ومُعاقراً أفضى لِحُوبٍ نافَقَهْ

حطَّت رحالٌ

واستناخَت أنفُسٌ

والرّوحُ مُلتاعٌ يعدُّ بوائقهْ

وتوسّدَت فوقَ الرّمال هياكلٌ..

مِنّا،

وصوت الرِّيح يعزفُ رائقهْ

فكأنّما ذاك الكثيب لجَنبنا..

مهدٌ وثيرٌ

في ظلالٍ سابقةْ

ومن السماءِ مَسارحٌ..

للِحاظنا،

ومن النجوم على اشتباكٍ..

بارقةْ

تتراسلُ الأنظار خيلاً ضابحاً

يعدو..

إلى جُدَد السَّحاب الفارقةْ

ويثورُ في المركوم..

نقعُ حوافرٍ

ما ضجّت الآمالُ فِينا تائقةْ

لا فرقَ بين صَلاتنا،

أو سكرنا،

فالله ينظرُ للقلوبِ العاشقةْ

الليلُ كالصحراء ردَّدَ عُرسَنا

وقبيلُنا جنٌّ..

يسوقُ خوارقهْ

ما بين جَمْجمةٍ، ورقصٍ حائر،

ومُكائِنا[1]: صيحاتُ قَهر زاعقةْ

كنّا كما الإعصار

---

(١) المُكاء: الصَّفِير.

ينبعُ هائجاً؛

ليذوبَ في الصَّحرا وعوداً نافِقةْ

يأساً بأرض الشّعر قُمنا،

وانطفَتْ..

أوهامنا، والشِّعرُ يقتلُ حاذقهْ

لا عيبَ فينا،

غير أنَّ قلوبنا تصفو..

على كدَر الدّواهيْ الخانقةْ

ونلوذ بالسّعد الغَرير؛

لنشتَفي..

ممّا نُلاقي في الحياة المائقة

ما زال حالُ القوم هذا،

والدُّجى سَحَرٌ..

يُناجي في الفضاء بَوارقهْ

حتّى رأينا الشمس..

تطلعُ غَضّةً،

والنورُ يُصعِدُ في الجبال شَوارقهْ

فانفضَّ عُرسٌ

كان أُنساً عابراً..

فوقَ النِّجادِ الصامتاتِ الناطقةْ

❋❋❋

اللوحة العاشرة


2022

مسالم يقلب مصطفى سعيد شعراً

«يا للسُّخرية! الإنسان لمُجرّد أنَّه خُلق عند خطّ الاستواء بعضُ المجانين يعتبرونَه عبداً، وبعضهم يعتبره إلهاً. أين الاعتدال؟! أين الاستواء؟!».

موسم الهجرة، ص١١١

العُمرُ أوهامٌ ونفسٌ آمِلَةْ

والطالبُ - المطلوبُ..

صبرٌ خاتلَهْ!

والقلبُ صَوّان تفطّرَ جارياً بالقهر

والتَبْخيسُ يُردي حاملهْ

يا لهفَ نفسي!

مَن أنا في عالمٍ..

مُتقطّعِ الأوصال يخذلُ واصلهْ؟!

أنا ذلك السّرُّ الذي..

لا يَنجلي،

إلا كطيفٍ لا يُبيح مَخايلهْ!

أنا هاجسٌ،

أنا فكرةٌ لا ترتوي..

إلا على شاطِي النُّجوم الآفلةْ

أنا أغربُ الأشياء

جِرْمٌ غامضٌ

لا يُدركُ اللفظُ الشّغوفُ مجاهِلهْ!

أنا مَن تردَّدَ في الهُويّة واهماً

وأنا جوابُ الذّات..

يُقْلِق سائلهْ

أنا ذلك العربـيّ يعرفُ أصله،

فيعود شوقاً للرِّمال الثاكلةْ

ويُعفِّر الخدَّين في فلواتها:

هذا أنا..

نجلُ البطاح الباسلةْ!

وأنِستُ بالظلّ الوحيش..

مُهادناً،

وقتلتُ مِن نور الشُّعاع جدايلهْ

كيما أعيش على الهوامش..

طارفاً،

وأنا تليدٌ، لا يُنيل أصايلهْ

حتّى إذا حُمَّ القضاءُ،

وعاجلَت..

رُسُل المنايا سائمات قاتلةْ

كتَبَ الختامَ النيلُ

واهبُ أرضنا

يهوي بكفٍّ بالبليّة نازلةْ

عَتْبٌ عليهِ، مِنَ الجمال أصوغُهُ

هل يبخسُ العتبُ الجميلُ..

فواصِلَهْ؟!

***

اللوحة الحادية عشرة


2022

خاتمة.. اختيار الحياة

«سأحيا؛ لأنَّ ثمَّة أُناساً[1] قليلين أُحبّ أن أبقى معهم أطولَ وقت ممكن، ولأنَّ عليّ واجباتٍ يجب أن أؤديها. لا يعنيني إن كان للحياة معنى، أو لم يكن لها معنى. وإن كُنت لا أستطيع أن أغفر؛ فسأحاول أن أنسى.. سأحيا بالقوَّة والمكر!».

موسم الهجرة، ص١٧٠ و١٧١

السرُّ في نبض الحياةِ الثائرةْ

مهما أرابَت،

فهْي دوماً آسرةْ

تحلُو، ولا تصفو!

---

(١) في أصل الرِّواية: «أناس»، والصواب ما أثبتناه هنا، فليست الكلمة ممنوعةً من الصرف.

وبونٌ شاسع...

والذكرياتُ على النقائض دائرةْ

لا شُرب يصفو في الكؤوس..

على المدى،

وتعاورُ الأيّام نفسٌ ساخرةْ

وعُلالة الذكرى:

بقيّةُ حُلوها،

ومُفارقاتٌ بالحقيقة سافرةْ

ما زلتُ في ثَبَج الطريق مُعانداً

بين الشَّمال وبين جُرح الخاصرةْ

أطفو، وأسرابُ القطَى..

تمضي شَمالاً

لستُ أدري..

هل تطير مُهاجرةْ؟!

لكنّني أختارُ أن أحيا

وما لي حِيلةٌ

وأنا جنوبٌ يستحثّ أواصِرهْ

إن فاتنا معنى الحياة، فعيشُها..

في قُرب مَن نهوى

معانٍ باهرةْ

***

المطوّس مجتمعه

(١) حديث الهِجرة

صوتٌ بقاع الذّاتِ بثَّ هواتفَهْ: هذي جراحُك بالبليّةِ نازفَةْ

هاجِر؛ تجد عِوضاً وأرضاً حُرّةً لكنّها للغير -لا لكَ!- وارِفة

وستلمحُ الأسرابَ قبلك حُشَّداً تطفو على جُنح الظلام مُجانِفة

مِن كلّ حَدْبٍ في الجنوب، توافدوا نثروا الأمانَ على الدُّروبِ الخائفة

ستدور ثمّة في الشَّمال مُعانداً ما بين ذاتك والرِّياح العاصفة:

«أنا مَن أكون، وما تكون هُويَّتي؟!» يَبلى السؤالُ، ولا يُذيب مخاوفَه

ستعودُ، لو مِن بعد حينٍ، تائباً ترجو السلامة في الوهاد الناطِفة

هذا الجنوب يضمُّ دوماً وُلْدَه فاختر للَحدِكَ مِن قُبورٍ سالفة!

(٢) جنوب وشَمال

النفسُ تحبسها الجهات المُجدِبةْ في ظُلمةٍ أوهامها مُتحزّبةْ

«نحن الشّمال وأنتمُ بجنوبنا...» كلٌّ يَعُبُّ، على الحقيقة، مشربَه

والسُّكر يلهو بالعقول مُعاقراً أصلَ السؤال، وغَولُه في الأجوبة

حتّى صبغنا الخافقين من الدِّما فمَشاهدُ الأشلاء فينا مُرعبةْ

نسبيّةٌ هذي الجهاتُ، فشرقُنا ينداحُ عن شرقٍ؛ ليصنعَ مغربَه

لجنوبِنا، نحنُ الشّمال، فأيُّنا ورِثَ الشّمال على سبيل المنقبة؟!

(٣) أمّ بلا دموع

من أين أبدأ.. والمرايا قاتمةْ والذكرياتُ حديثُ نفسٍ صائمةْ؟!

نذرَت لصمتٍ، وانْتَجته ليدّعي بلسان وهمٍ عن ليالٍ سائمة

وغلائلُ الذّكرى تشفّ عن الـ مضَى في حضن مَن ذرفت وعوداً ساهمة

وسقَتهُ من أوشال صدرٍ ضامر ما لا يشدُّ من الوليد قوائمه

وأناملٌ مسَّت تُعابث ثديها كعُيونه الألِفت عيوناً واجمة

ما واصلته تردُّ من شغفٍ به لحَنينها ولهَيْنَمات فاغمة

حتّى استوى مِن عُودِه اللاشيء يسبحُ في الأماني الحالمات الهائمة
لفظَتْهُ للبحر الكفور مُهاجراً من دون زادٍ، والدّروبِ الظالمة
فكأنّها وطنٌ يطوفُ بأهله بين المنافي العابسات الغائمة

(٤) غُربة وتيه

ما بين سهلٍ والسُّفُوح المُتخمَةْ تيهٌ عجيب لا يُواسي يُتّمَهْ
والغُربة الحمقاء تنهش جوعَنا لخُرافة الوطن الكريم المُلهِمة
في هِجرة اللا حيث نسري هُيَّماً تلهو بنا كفُّ البحار مُغمغمة
ووراءنا لُججٌ تُذيب سواحلَ الوطن المشيّد من سواعدَ مُعدِمة
الشرق يلفظُ جوعَنا واليُتْمَ في أحداقنا، والغربُ يقضِمُ أعظُمَه
وجنوبُنا يُذكي اللهيبَ بجوفنا وبنا الشّمالُ ذُرى صَقيعٍ مُتخمة
ما بين فَكَّي الاغترابِ توذَّرَت في التِّيه أحلامٌ نَمَت مُترنّمة
وحنينِ قلبٍ ما استقلَّ السّهل مِن أفلاكه، والصبرُ يُزهق أنجُمه

(٥) غرفة شرقيّة

السّحرُ شرقٌ يستفزّ الأمكنَةْ ولطالما قتلَ المَغيب وأبَّنهْ!
مِن عهد ذي القرنين، كانت بابلٌ ولسحرها في العالمين السَّلطنة
قتلَتْه، وهْو الفاتح المغوار سارَ مُظفّراً يلوي خِطام الأزمنة
وأنا أتيت ببابلي.. أزهو بها في غُرفة بالباهيات مُزيَّنة
روضٌ يعطّره البَخورُ بشرقنا وبها المرايا عابثاتٌ - مُحصنة
للعاج والأَبنُوس فيها متحف أغنى الجمالَ من الجميل وأسمنه
حتّى استوت لي مذبحاً أُجري له شرفَ النِّسا من ناشِز ومُدجَّنة
لكأنّها «كَرَري» تغيبُ بنَقْعها وأنا بها «كِتشنيرُ» يخسَرُ أحسَنه
وهي انتصاراتٌ عقدتُ لواءها لوساوسٍ ضبحَت برأسي أزمنة
عالجتُ فيها من صُنوف نسائهم فجنيتُ من كلّ الزهورِ و«سَوسنة»
عادت بأوهامي إلى بغدادَ في أمجادها حتّى استنامت مُثخنة
أنا قاتلٌ، وأنا القتيل بما جنيتُ، وغرفة الموتى رحىً في مطحنة

(٦) جين موريس

ما كان كُرهاً.. كان حُبّاً أركسَهْ لم يُحسن التعبير عمّا قدَّسَهْ!

عشقتهُ، لا يُدرى بأيّ طريقة عشقَت جُنوناً؟! واشتفت بالغَطرسة

كانت كقبض الرّيح في ليلٍ دجى تنأى شِهاباً لا يُطاوِع خُنّسَه

«موريسُ» كانت ساحلَ الموت الذي قهَرَ الجَواري الـ طوَّحت بك مُبْلسة

ما أنتِ، يا وَهَج البُرُنْزِ يثور من شَمسٍ لتُمّوزَ احْتوته كوَسْوسة؟!

مع أنّ رِقّة ثغرِها وجمالَها آياتُ حُسن فاغَمَتْهُ كنَرْجسة

والكبرياء حديث وجه نابضٍ يروي أباطيلَ النساء المؤنسة

ما كان حُبّاً، كان قيداً مُجهداً أضناه حيثُ تمنَّعَت مُتحمّسة

وخَطَت.. تُخاتل كبرياءَ الشّرق في معنى الرُّجولة، وهْو قهرٌ أبْلسه!

ودَنَت.. وما تدري بأنّ رُجولة الشرقيّ رمحٌ يَرتوي مَن دَسَّسه

«موريسُ» غربٌ دائم الأوهام في معنى اصطبار الشّرق، مهما جَسَّسه!

(٧) حَسْنة بنت محمود

أيُخاتل الخذلانُ دوماً موعدَهْ   أم يشتفي مِن خاذلٍ قد أبَّدهْ؟!
ما غافَلَ الذَّنبَ القديم مُهاجرٌ   إلا ودمعٌ في المحاجر جدَّده!
هو ذلك الجُرحِ العميق بذاتنا   أبداً نحنُّ إلى نضالٍ سدَّده
هو أنتِ، يا مَن أورثتني ثُكلها   فوق اصطبارات العذاب مُمدَّده
أحجمتُ عنكِ، وقد خفرتُ وَصاته   ما كان لو أقدمتُ حتّى أُسعِده؟!
لعساءُ، يا وطناً تقاعس أهلهُ   عن نصره، والجُبن فيهم بدَّده
وطن تكاثفتِ النوائب تنتخي   لبَواره، والدّهرُ عسفاً أشهده
كادَت له الحُسّادُ، والفُسّادُ، والأوغادُ، والـ   صَّمتَتْ عليهم مُجهَدة
غالوكِ، يا وطني السليب، وعطريَ الأبهى، وآمالاً عدَتْهُ مُندَّدة!

(٨) وَد الريّس

أين اصطبارُك والليالي مُتلِفَةْ   وحفيفُ هذا العُمر ريح مُرجفةْ؟!
ماذا جنيتَ وحملُ ظهرِك مُجهِد   أربى على السبعين يُرْدي نَيِّفه؟!
هبْ أنّك الوترُ الذي لا يرتخي   هل في الفؤاد عُلالة بك مُرهَفة؟!

هل فيه من زهرِ الجنائن عابقٌ إن مرَّ في نادٍ جَديب؛ أتحفَه؟!
ماذا جنيتَ، وأنت من تلك البقايا المُلقِيات على الزَّمان تخلّفَه؟!
النائباتِ، القاعدات بركبنا، الهائجات، العاديات، المُجحفة
ما أنت، يا مَن لا يقرُّ قراره إلا على «أخرى» تخورُ مُزَفْزِفة
كي تُعلن النصرَ الكبير وتزدهي بين الرّجال و«بعضِ أُنثى» مُقرفة
تتوهّم التأجيلَ في أجلٍ دنى؟! أوَ ما سمعتَ من الملاكِ الرَّفرفة؟!
لن ينسأ الأعمارَ لَهوٌ عابث هذي المشاعر قُدسنا المتأنّفة!
فاربَع على نفسٍ نَمَت أطماعُها حتّى طغَت فوق الطباع مُخرِّفة
ما كانت النِّسوان فينا سلعة هُنَّ الشقائق، في الحياة، مُشنّفة
ما كان شَعب أن يُغالبَ حظَّهُ إلا وركنُ البيت يُرسي أسقُفَه!

(٩) عرس صحراويّ

الليلُ صمتٌ يستزلُّ طوارقَهْ ومن السُّرى شوقٌ يُمِدُّ سوابقَهْ
في عَتمهِ تيهٌ، وفيه من الهُدى.. يحلو الطِّباقُ؛ فيستحثُّ نواطقه!
جئنا على قدرٍ، فتلمحُ ناسكاً ومُعاقراً أفضى لحُوبٍ نافَقَه

حطَّتْ رِحالٌ واستناخت أنفُس والرّوحُ مُلتاع يعدُّ بوائقه
وتوسّدت فوق الرّمال هياكل منّا، وصوت الرِّيح يعزفُ رائقه
فكأنّما ذاك الكثيب لجَنبنا مهدٌ وثير في ظلالٍ سابقة
ومن السماء مَسارحٌ للِحاظنا ومن النجوم على اشتباكٍ بارقة
تتراسلُ الأنظار خيلاً ضابحاً يعدو إلى جُدَد السَّحاب الفارقة
ويثور في المركوم نقعُ حوافرٍ ما ضجّت الآمالُ فينا تائقة
لا فرقَ بين صَلاتنا، أو سُكرنا فالله ينظرُ للقلوب العاشقة
الليلُ كالصحراء.. ردَّد عُرسنا وقبيلُنا جِنٌّ يسوقُ خوارقه
ما بين جَمْجمة ورقصٍ حائرٍ ومُكائِنا: صيحاتُ قهرٍ زاعقة
كُنّا كما الإعصار ينبع هائجاً ليذوب في الصَّحرا وعوداً نافِقة
يأساً بأرض الشّعر قُمنا وانطفَتْ أوهامنا، والشِّعر يقتلُ حاذقه
لا عيبَ فينا، غير أنّ قلوبنا تصفو على كَدَر الدواهي الخانقة
ونلوذ بالسّعد الغَرير؛ لنشتفي ممّا نلاقي في الحياة المائقة
ما زال حالُ القوم هذا، والدُّجى سَحَرٌ يُناجي في الفضاء بَوارقه
حتّى رأينا الشمس تطلع غَضّةً والنورُ يُصعِد في الجبال شَوارقه

فانفضَّ عُرسٌ كان أُنساً عابراً   فوقَ النجاد الصامتات الناطقة

(١٠) ما لم يقُله مُصطفى سَعيد شِعراً

العُمر أوهامٌ ونفسٌ آمِلَةْ   والطالبُ - المطلوبُ: صبرٌ خاتلَهْ!
والقلبُ صَوّان تفطّر جارياً   بالقهرِ، والتَبْخيسُ يُردي حامله
يا لهفَ نفسي.. مَن أنا في عالمٍ   مُتقطّعِ الأوصال يخذلُ واصله؟!
أنا ذلك السرُّ الذي لا يَنجلي   إلا كطيفٍ لا يُبيح مَخايله!
أنا هاجسٌ.. أنا فكرةٌ لا ترتوي   إلا على شاطِي النُّجوم الآفلة
أنا أغربُ الأشياء.. جِرْمٌ غامض   لا يُدرِكُ اللفظُ الشّغوف مَجاهِله!
أنا مَن تردَّد في الهُويّة واهماً   وأنا جوابُ الذّات يُقلق سائله
أنا ذلك العربيّ.. يعرفُ أصله   فيعود شوقاً للرِّمال الثاكلة
ويُعفِّر الخدَّين في فلواتها: هذا أنا، نجلُ البِطاح الباسلة!
وأنِستُ بالظلّ الوحيش مُهادناً   وقتلتُ مِن نورِ الشُّعاع جدايله
كيما أعيش على الهوامش طارفاً   وأنا تليدٌ لا يُنيل أصايله
حتّى إذا حُمَّ القضاءُ وعاجلَت   رُسُل المنايا سائمات قاتلة

كتبَ الختامَ النيلُ واهب أرضِنا   يهوي   بكفٍّ   بالبليّة   نازلة
عَتْبٌ عليه من الجمال أصوغه   هل يبخسُ العتبُ الجميل فواضِلَه؟!

(١١) خاتمة.. اختيار الحياة

السرُّ في نبضِ الحياة الثائرةْ   مهما أرابَت، فهْي دوماً آسرةْ
تحلُو ولا تصفو، وبونٌ شاسع   والذكرياتُ على النقائض دائرة
لا شرب يصفو في الكؤوس على المدى   وتعاورُ الأيام نفسٌ ساخرة
وعُلالة الذكرى: بقيّةُ حُلوها   ومُفارقاتٌ بالحقيقة سافرة
ما زلتُ في ثَبَج الطريق مُعانداً   بين الشَّمال وبين جُرحِ الخاصرة
أطفو وأسرابُ القطى تمضي شَمالاً لستُ أدري.. هل تطير مُهاجرة؟!
لكنّني أختار أن أحيا، وما لي حِيلة   وأنا جنوب يستحثّ أواصِره
إن فاتنا معنى الحياة، فعيشُها   في قُرب مَن نهوى معانٍ باهرة

«تمت!»

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
(٣٦٩٦) لسنة ٢٠٢٢م

الترقيم المعياري الدوليّ (ISBN)
978-9922-21-329-3



ترانيم الهجرة إلى الشمال

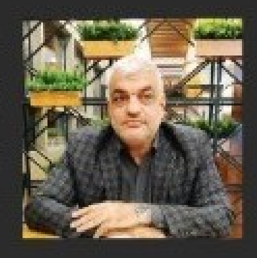
هذه مطوّلةٌ شِعريّة كتبها الشاعر مُستلهِماً أهمّ روايات الطيّب صالح: «موسم الهجرة إلى الشمال» التي صُنِّفت عام ٢٠٠٢م ضمن قائمة أفضل مائة عمل أدبيّ في التاريخ!

بيّن الشاعر في مقدّمة الديوان أنّ من أسباب استلهام هذا العمل: شدّة تأثّره به وحفاوته بالفنّ الذي حواه على صُعُدٍ شتّى، وخصوصاً تلك اللغة التي تنتمي في الأدب إلى السَّهل المُمتنع.

ومن ذلك، أنّ المحور الرئيس للعمل ما زال مُلتهباً، بل هو في اتّقاد وتسعُّر، ألا وهو صِراع الحضارات الذي ازداد جوعاً وتوحّشاً بعد العولمة الحديثة التي فرضها الغالب على المغلوبين والمُستضعفين والمُهمّشين من سُكّان هذا الكوكب البائس بتظالم النّاس وتباخسهم، وغير ذلك من الأسباب.

هذا العمل جدير بالقراءة والدّرس والتحليل والنقد، وهو أوّل عمل شعريّ يستلهم رواية عربيّة!

الناشر



فراس عبد الرزّاق السودانيّ

كاتب وناقد وشاعر عراقيّ، عضو في العديد من الجمعيات العلميّة العراقيّة والعربيّة والدوليّة. نشر الكثير من الكُتب والتحقيقات والأبحاث والمقالات. دكتوراه في الهندسة الإنشائيّة واستشاريّ في الهندسة المدنيّة.



9 789922 213293



كوثا ناشرون

رقم الايداع في دار الكتب ببغداد (٣٦٩٦) لسنة ٢٠٢٢م